جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ

رسالة ماجستير عن

مدينة مصر القديمة في القرن السابع عشر الميلادي

دراسة تاريخية

إعداد

خالد حامد السيد عبد الله أبو الروس

تحت إشراف

أ.د/ محمد عفيفي عبد الخالق
[مشرف]

أ.د/ أحمد حسن
عميد كلية الآداب – جامعة القاهرة
[مشرف مشارك]

تقديـــــم

تعتبر دراسة المدن الحضارية من الدراسات المفيدة في مجال البحث التاريخي. هـذه المدن التي حظيت بإهتمام من جانب بعض المهتمين بالتنقيب في هذا المجال وعلـى رأسـهم عبد الرحمن زكي وأندريه ريمون، وجاءت القاهرة محط اهتمام هـؤلاء فـي المقـام الأول بوصفها العاصمة وكل ما يأتي بعدها يدور في فلكها، كذلك اعتبرت مصر القديمـة مجـرد متنفس لها ينظر إليها الكثيرون على أنها حي عادي من أحياء القاهرة أصبح مهيض الجنـاح بعدما كانت منطقته تتبوأ دور الزعامة على مصر قاطبة. وكل من تناولها بالدراسة من قريب أو بعيد نظر إليها على أنها شئ عظيم قد تحطم فراح يرثي مجده الزائـل ويتعلـق بـأهداب الماضي الجميل كي يتحسس طريقه نحو المستقبل، لذلك جاءت الكتابات التـي دارت حولـها في مجملها فقيرة تفتقد إلى المصداقية يعوزها التنقيب بمعولٍ من حديدٍ من أجل إضافة شـئ ذي قيمة تذكر.

لذلك وقع إختيارنا على " مصر القديمة في القرن السابع عشر الميـلادي " لتكـون أطروحة للماجستير، نكشف من خلالها اللثام عن تلك المدينة التي وقع عليها الغبن من قِبـل البعض. والتي اكتنفها الغموض لفتراتٍ طويلةٍ. وجاء تحديد فترة القرن السابع عشر بـالذات لأنه حتى هذه اللحظة لم تكن هناك وفرة من الدراسات المستقلة لهذه الحقبة التي تعد من أكـثر الحقب في تاريخ مصر غموضاً. وبالتالي جاءت الصعوبة هنا مزدوجة فـي دراسـة مدينـة تعلوها الأتربة في فترة غاية في الغموض. لذلك كان لزامـاً علينا التنقيب الدؤوب والتحلـي بالصبر لإخراج شئ يذكر، لذا فهي محاولة متواضعة بكل المقـاييس. وقـد انقسـمت هـذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة. حاول الباحث في المقدمة إلقاء الضوء على مدينـة الفسطاط التي ورثتها مصر القديمة (العتيقة) فيما بعد، ثم كيفية ظهور مصر القديمة وأفـول نجم الفسطاط. في الفصل الأول انصب اهتمام الباحث حول معالجة عدة أمور منـها وضـع مسمى للمدينة حتى لا يحدث اللبس، ثم بعد ذلك عالج الجوانب العمرانية فيها ليقطـع بذلـك

أصابع الإتهام التى وجهت إليها من حيث كونها خرائب ومأوى لأعمال اللصوصية على مر التاريخ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران، كذلك تناول فيه أهم المنشآت الدينية والإجتماعية.

وفى الفصل الثانى ركز الباحث على النظام الإدارى بالمدينة وما يتضمنه هيكل الجهاز الإدارى من أمير اللوا والقاضى والصوباشى ورجاله وكذلك المحتسب وخصص الجزء الأخير من الفصل لإلقاء الضوء على النظام المالى والجمركى للمدينة. أما الفصل الثالث فقد خصصه الباحث للزراعة والصناعة فقط. فتناول نظم الزراعة والرى وأشكال الحيازة ومدى صلتها بنظام الالتزام رغم أنها مدينة حضرية وليست ريفية، وظهرت بها العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار والزيوت والشموع ونجارة المراكب والحياكة والصباغة والصناعات الغذائية وغيرها من الصناعات التى تؤكد أنها مدينة بكل المقاييس ذات شكلٍ ونظامٍ معين.

أما الفصل الرابع فقد استعرض فيه الباحث التجارة منفردة عن الزراعة والصناعة رغم أنها تمثل معهما محور الحياة الاقتصادية. وبدأ الفصل على غير العادة من حيث التركيز على كونها مدينة وليست حياً يؤكد ذلك النشاط التجارى الضخم بها مع وجود ميناء مستقل ربما يتبادر لأذهان البعض تأخر الإشارة الواضحة حول كونها مدينة أم لا ؟ فهذا أمر مقصود بعد تناول الصناعة والنشاط التجارى بها وإثبات أن الزراعة التى ظهرت بها زراعة بساتين أى أنها " المدينة المتريفة " ولا تنفى عنها صفة المدينة الحضرية.

وفى الفصل الخامس تناول فيه الباحث الحياة الاجتماعية والصحية بالمدينة. بدأ بتعدد فئات المجتمع التى شكلت النسيج الاجتماعى لها من أتراك ومماليك ومصريين ورقيق وغيرهم واستطرد إلى الأحوال الشخصية بها من أمور الزواج والطلاق والنفقة. وتناول أمور الصحة بها فى ضوء ما هو متاح من مادة.

وخصص الفصل الأخير لدراسة النواحى الدينية والثقافية من حيث مظاهر الحياة الدينية لدى المسلمين والنصارى بها ودور الدولة فى تنظيم شئون الحياة الدينية والأوقاف. وشملت النواحى الثقافية بها أهم الكتاتيب والمدارس وبعض المهتمين بالأحوال الثقافية بها والتى جاءت فقيرة إلى حدٍ ما نظراً لقلة المادة فى هذا الجانب.

وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى توصلنا إليها إضافة إلى بعض الملاحق عن الأشكال والصور التى تخدم الدراسة بشكلٍ مباشر وصريح، وبعض الوثائق الهامة عن تاريخ مصر القديمة فى القرن السابع عشر الميلادى.

واعتمدت الدراسة على العديد من الوثائق والمصادر يأتى فى مقدمتها وثائق المحاكم الشرعية ودفاتر الروزنامة التى توصل الباحث إلى إخراج بعض منها لم يكن معروفاً من قبل يعود تاريخها إلى عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م وما بعدها ويعود ذلك إلى أن مثل هذه الدفاتر تفتقد إلى الفهرسة الجيدة. ومن يدرى ربما نتوصل إلى دفاترٍ أخرى تعود إلى ما قبل هذا التاريخ، وعموماً فقد قمنا بنشر بعض أصولها فى ملاحق هذه الدراسة حتى تتضح الرؤية.

واعتمدنا بعض الوقت على وثائق من دفاتر الرزق والالتزام ولكن على نطاقٍ ضيق بما يخدم دراستنا.

واطلع الباحث على العديد من المخطوطات المحفوظة بدار الكتب المصرية – قسم المخطوطات – سواء كانت مخطوطات تاريخية أو جغرافية أو فقهية أو فى التصوف والمعارف العامة وبعض المخطوطات القبطية التى تقع تحت رمز (لاهوت) ولكن على نطاقٍ ضيق لصعوبتها على الباحث المبتدئ.

وقد قدمت المصادر التاريخية وكتب الخطط للمقريزى وغيره مادة علمية لا بأس بها. إضافة إلى كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المدينة خلال القرن فكانوا شاهد عيان على أحداث تلك الفترة. وقد حصل الباحث على نسخ هذه الكتابات من المجمع العلمى بالقاهرة.

وهناك العديد من المقالات العربية والمعربة والإفرنجية وبعض المقالات التى استند إليها الباحث بشكل يسند المادة الوثائقية والمصدرية حتى يتحقق التلاحم بين جنبات الموضوعات المختلفة والتى سرعان ما ظهرت – نتيجة ذلك – كجسدٍ واحد لا أثر للجروح به رغم العمليات الجراحية العديدة التى ألمت به.

ويوجه الباحث الشكر إلى الصديق أحمد عبد العزيز الباحث بجامعة الإسكندرية الذى أمدنى بالعديد من المصادر النادرة التى يتعذر الحصول عليها، وكذلك الأخ والصديق أيمن أحمد الباحث بجامعة القاهرة الذى طالما نتناقش معاً مناقشات جادة ومثمرة تكشف لى عن معلوماتٍ وأفكارٍ هامة.

ويتقدم الباحث بالشكر للدكتور ميشيل توشرار (بجامعة أكس بروفانس) والباحث بالمعهد الفرنسى بالقاهرة بما قدمه لى من معلوماتٍ ثمينةٍ وكذلك بعض المقالات الهامة التى تمس الدراسة.

وأخص بالشكر العاملين بالمجمع العلمى بالقاهرة وكذلك دار الوثائق والكتب القومية ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة وغيرها من الأماكن التى تردد عليها الباحث وكذلك بعض الشخصيات التى يضيق المقام عن ذكرها من سكان مصر القديمة التى تقابل معها الباحث أثناء جولاته بالمدينة فهؤلاء قد قدموا للباحث المعلومات الغزيرة عن الواقع الفعلى الآن للمنطقة الأمر الذى سهل على الباحث محاولة تضييق هوة الزمان بما يتناسب إلى حدٍ ما مع الواقع الفعلى للمدينة دون الإخلال بالإطار التاريخى والفكرى للعصر الذى تتناوله الدراسة حتى لا تأتى الكتابة فى جانب والواقع فى جانبٍ آخر.

ويتقدم الباحث بجزيل الشكر لأستاذه الفاضل الدكتور أحمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة – والمشرف المشارك – على ما قدمه للباحث من ملاحظاتٍ ومعلوماتٍ هامة أضاءت الكثير من مجاهل البحث.

وفى البداية والنهاية يبقى دور الأستاذ الدكتور محمد عفيفى عبد الخالق المشرف على هذه الدراسة فهو لم يكن مشرفاً فحسب بل كان بمثابة الأستاذ والأخ والصديق والأب الروحى للباحث، وإليه ترجع فكرة اختيار موضوع البحث. فقد ساهم بخبرته فى العصر العثمانى بإرشاد الباحث عن كيفية التعامل مع وثائق العصر ومصادره ولم يألُ جهداً فى توجيه الباحث الذى طالما يحتاج إلى مجهودٍ مضنٍ بحكم قلة خبرته وإذا أتى بجديد فإن الفضل يعود إلى الدكتور عفيفى الذى غرس هذا النبت. ولا يعنى ذلك تحمله أى قصور قد وقع فيه الباحث فالمسئولية أولاً وأخيراً تقع على عاتق الباحث.

تمهيـــــد

مصر القديمة قبيل القرن السابع عشر

قبل الخوض فى دراسة مدينة مصر القديمة (وريثة الفسطاط) خلال القـــرن الســـابع عشر الميلادى، رأينا أن نضع أيدينا على بعض النقاط الهامة حتى تتضح لنا الصورة.

نقول أن الإنسانية قد عرفت منذ بواكير الحضارات الأولى التى قامت فـــى حضـــن الأنهار سواء الحضارة الفرعونية أو حضارة بلاد الرافدين وفيتيقيا أو حضـــارات الإغريـــق والرومان فكرة بناء المدن. فعندما هبط المصرى القديم من فوق الهضبتين الشرقية والغربيـــة فراراً من شبح الجفاف الذى أرخى سدوله عليهما، واستقر حول ضفتى وادى النيل، فعـــرف الزراعة ونعم بحياة الاستقرار، فعندئذ بدأ يفكر فى بناء القرى الريفية وما تبع ذلك من تشـــييد المدن التى ضمت العديد من هذه القرى.

وكذلك لا ننكر فضل الحضارة الإغريقية فى هذا، فقد قدمت لنا العديد مـــن المـــدن أمثال مدينة موكيناى وكورنثا وأثينا وإسبرطة وغيرهم، فكانت كلمة مدينـــة عندهـــم تعنـــى (Polis) أى تجمع سكانى وسياسى يضم عدة قبائل مختلفة[1]. صحيح أن الإغريق قد أخـــذوا فكرة الـــ (Polis) من السومريين الذين سبقوهم فى هذا المضمار بأكثر من ألفـــى عـــام أى سنة ٣٠٠٠ ق.م، ولكن يحسب للإغريق أنهم طوروا نظام المدينة وجعلوا لـــها شـــخصيتها المستقلة.

وعندما ظهر الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية، وتوحدت الجزيـــرة العربيـــة تحت لوائها بعدما عاش العرب قروناً طويلة فى حروب وتناحر وفرقة قبل الإسلام. وما تبـــع ذلك من فتوحات إسلامية وشعور الفاتحين بحاجتهم إلى الاستقرار فى تلـــك الأقـــاليم التـــى فتحوها. فشرعوا فى تأسيس المدن الجديدة التى كانت أشبه بالمعسكرات الحربية واتخذوهـــا

---

[1] سيد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم. دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦، ص٩٧

عواصم لأقاليمهم وأطلقوا عليها لقب " الأمصار " فكانت البصرة والكوفة أولـــى الأمصـــار الإسلامية[١].

فكانت المدينة النبوية أو المنورة – التى حلت محل يثرب بعد نزول النبى صلـــى الله عليه وسلم بها واتخذها داراً له – أول ظهور للفظ " مدينة فى الإسلام "، فقد ورد أن اللفـــظ أصله أرامى والمقطع (دين) يعنى العدل والديان فى اللغات العربية والآرامية والعبرية هـــو القاضى فبذلك يطلق لفظ مدينة على المكان الذى يطبق فيه العدل أو المكان الذى توجد فيـــه الحكومة ومقر ممثلى الدولة أو المكان الذى يكون فيه القضاء[٢].

وتخطيط المدينة الإسلامية جاء مبسطاً بعيداً عن التعقيد، فكان الفاتحون يبـــدأون أولاً بالجامع ودار الإمارة والسوق، وفى أحيان كثيرة كان الجامع والسوق داراً للإمارة، فالمســـجد عموماً هو حجر الزاوية فى المدينة الإسلامية[٣].

ظهر ذلك بوضوح فى مدينة الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية والتى ضمـــرت بمرور الأيام وحلت محلها مدينة أخرى أخذت لفظ مدينة مصر أو مصـــر العتيقـــة ومصـــر القديمة كما سنرى.

الفسطاط: ظهورها، نموها، أفولها:

شرع عمرو بن العاص بعد عودته من الإسكندرية وإتمام فتح مصـــر فـــى تخطيـــط الفسطاط عام ٢١هـــ/٦٤١م لتكون أولى عواصم مصر الإسلامية وهى تقع إلى الشمال مـــن مدينة بابليون العتيقة بمسافة ٤٢٠ متراً حيث عسكرت قوات عمرو للمـــرة الأولـــى، وذلـــك بهدف جعلها دار مستقر للقبائل العربية، وقد عهد عمرو إلى أربعة من المسلمين بالفصل بيـــن

---

[١] أيمن فؤاد سيد: المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التى تناولتها. بحث فى المجلة التاريخية. العدد ٤٠ لســـنة ١٩٩٧، ص٤٧

[٢] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص٤٩

[٣] سعاد ماهر: تطور العمائر الإسلامية بتطور وظائفها. مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ١٨ عام ١٩٧١، ص٥٥

القبائل فى تنظيم خطة كل منها، وهم معاوية ابن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى.

وتم تقسيم الفسطاط على هيئة خطط مثل خطة أهل الراية أى حاملى الأعلام والمواد هنا ألوية القبائل – حيث كان لكل قبيلة لواء يحمله رئيسها، وكان أصحاب الألوية رؤساء الجند لذلك كانت هذه الخطة تسمى خطة الرؤساء[١]. وخطتا الحمراء الدنيا والقصوى[*]. وكانت أكبر الخطط تجيب وعطيف وخولان ومعافر وكلها قبائل يمنية، وما أن أخذت تكتمل هذه الخطط حتى أخذ الناس يتسابقون فيها على بناء الدور والمساجد[٢].

وقد خالفت بتلر Butler هذا الرأى فقالت " **والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر** – أى تخطيط الفسطاط – **إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب** ". ولكن يرى الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم عبد الرحمن زكى أن تخطيط الفسطاط فى ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط[٣].

وقد عمرت الفسطاط واتسعت حتى قال ابن حوقل إنها " **مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ للمسافة[**] على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام** .... " [٤]. ويرى أندريه ريمون أن مساحة الفسطاط قد بلغت زمن الفاطميين نحو ٣٠٠ هكتار، (أى ٧٤٠ فداناً)[٥]. فى حين قدرها بعض الجغرافيين المحدثين بنحو ٢٧٠٠ متراً[٦].

---

[١] جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٢، مراجعة حسين مؤنس، دار الهلال، ط١، هامش ص١٨٢

[*] الحمراء: بطن من عقب أرش بن أراس بن جزيلة بن لخم من القحطانية. انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٩٩٧، ص٢٩٩

[٢] أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، ١٩٦١، ص٥٧

[٣] عبد الرحمن زكى: القاهرة، ١٩٤٣، ص١١

[**] الفرسخ: مقياس فرنسى يبلغ نحو عشرة آلاف كم٢

[٤] ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٣٧

[٥] أندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص٦٢

[٦] فتحى محمد مصلحى: تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى، ص١٢٣

وقد امتاز موقع الفسطاط بحصانة طبيعية، يتضح لنا ذلك من خلال تحديد مسار المدينة طبيعياً فهى تمتد شمالاً حتى كوم الجارح وقنطرة السد منطلقة جنوباً من الرصد " الذى كان قائماً على ذروة الشرف المطل على بركة الحبش " – وحدها الغربى هو الشاطئ الأيمن لنهر النيل والذى كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الشاطئ نحو الغرب والحد الشرقى ينتهى إلى القرافة[١].

وكثر السكان بالفسطاط حتى أننا نجد المقدسى فى القرن الرابع الهجرى لم يكتفِ بما سمعه عن مدى اكتظاظها بالسكان فأراد أن يتأكد من ذلك فقال " **وسمعتهم يذكرون إنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريباً مما قالوا** ..... "[٢]. ويستخلص أندريه ريمون رقماً لتعداد سكان الفسطاط خلال القرن الرابع الهجرى أيضاً من وسط العديد من التقديرات، ويرى أن عدد سكانها آنذاك يقترب من ١٢٠ ألف نسمة[٣].

ويرصد خالد عزب حال الفسطاط فى العصور التالية من النشأة فقد ازدهرت فى العصر الأموى على يد الوالى مسلمة بن مخلد الأنصارى " ٤٧-٦٢هـ/٦٦٧-٦٨١م " الذى بنى مقياس الروضة وداراً للصناعة وكذلك على يد عبد الملك بن مروان " ٧٩-٨٩هـ/٦٨٢-٧٠٥م " الذى شهدت الفسطاط فى عهده نهضة عمرانية كبيرة[٤].

واستمر عمران الفسطاط وازدهارها حتى زمن الفاطميين وبالتحديد منذ بداية حكم المستنصر " ٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م "، فيرى المقريزى وغيره من المؤرخين أن تدهور الفسطاط حدث نتيجة سببين:-

---

(١) أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠، ص٥٩

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر ،بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص١٩٨

(٣) أندريه ريمون: المرجع السابق، ص٦٢

(٤) خالد عزب: الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية. مقال مطبوع ضمن مقالات الهيئة العامة لقصور الثقافة للإحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام مصر، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٧

- الشدة المستنصرية وما تبعها من خراب ودمار حل فى ربوع البلاد.
- حريق الفسطاط فى عهد وزارة شاور بن مجير السعدى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م أثناء قدوم عمورى ملك الأفرنج – أو مرى كما نعته ابن أبى السرور البكرى – **ونزل فى جموع على بركة الحبش " يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة "**[١]. فأضرمت النار فى الفسطاط حتى إحترقت، وإستولى بعد ذلك أسد الدين شيركوه على الوزارة، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً إذ توفى وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى الذى عمّر الكثير من خرائب الفسطاط، فلم يحذو حذو سابقيه من بناء ضواحٍ جديدة وترك آثار الماضى، بل عمل جاهداً على إحياء المدن القديمة، فقد عقد العزم على إحياء مدينة مصر نعنى الفسطاط السابقة والتى عمها الخراب وتراكمت عليها الأتربة[٢]. فضرب سوراً فى استحكامات بدر الجمالى القديمة، وقيل أنه مد سور بدر الجمالى شمالاً من نهايته عند الخليج على النيل حيث موضع حصن المقس، أما من الجهة الشرقية فقد مد الحائط القديم جنوباً حتى باب الوزير قرب القلعة.

ويرى ستانلى لينبول " أن فكرة الأسوار لم تكن إلا تطوراً لأسوار بدر الجمالى القديمة "[٣]. ولكن رغم ذلك لا ننكر فضل صلاح الدين فى وقف النزيف الذى حل بمدينة مصر منذ عهد الفاطميين. فقد كان صلاح الدين مشغولاً بمشروعاته الحربية فى بلاد الشام لدرء خطر الصليبيين عن ديار الإسلام.

وخلال العصر المملوكى نجد أن مدينة مصر [القديمة] قد حدث اهتمام بها من جانب بعض السلاطين وجاء ذلك مرهوناً بأحوال البلاد الأمنية. فالناصر محمد بن قلاوون شيد بها بعض المبانى الدينية كالجامع الجديد الناصر قرب فم الخليج، وكذلك انصب اهتمام

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى: قطف الأزهار من الخطط والآثار. مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٧ ميكروفيلم ٤٥٨٥٢ ورقة ٤٨

(٢) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن، هيئة الكتاب، ١٩٩٧، ص١٥٦

(٣) نفس المرجع: س١٥٧

الغورى حول ذات المنطقة فقام بهدم قناطر المياه القديمة وأعاد تشييدها من جديد عند مـوردة الخلفاء قرب الجامع الجديد مما وفر المياه للمنطقة التى دبت فيها الـزروع والبسـاتين بعـد السنوات العجاف التى شهدتها وحل بها السكان بعد الهجر.

ولما أقبل العصر العثمانى اتخذت مصر القديمة منعطفاً آخر، فقد درج على وصفـها بلقب [حى] رغم احتوائها على ميناء أشبه بخلية النحل من كثرة الرواج التجارى لـه كمـا سنرى. وقيل أن الخراب قد عم أجزاء كبيرة منها وقل نشاطها واتخذت بولاق دور الزعامـة بوصفها ميناء القاهرة الأول. فهل صحيح أن مصر القديمة قد توارى دورها خلال العصـر العثمانى خاصة القرن السابع عشر وهى الفترة المعنية بالدراسة ؟ وهل عـم الخـراب تلـك المدينة وريثة الفسطاط ذات الماضى التليد ؟ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران من جـانب الحكومة (الإدارة العثمانية) ؟

هذه بعض التساؤلات سوف نحاول الإجابة عنها فى جوٍ من الإنصاف بغية الوصـول إلى الحقيقة التاريخية وكشف اللثام عن مدينة كانت ذات ماضٍ جميل حفها الـوادى الأميـن بالرعاية والنماء عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

الفصل الأول

مصر القديمة من منظور عمرانى

مصر القديمة من منظور عمراني

تقع مصر القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل، ومن ملحقاتها جزيرة الروضة التى يفصلها عنها أحد أفرع النهر، ولذلك فهى ذات موقع جغرافى متميز، تطل على منفذ مائى سهل عليها الاتصال بالخارج ونشر العمران فى ربوعها. إضافة إلى أنها وريثة لمدينتين قديمتين كانتا لهما عمقاً فى التاريخ نعنى مدينة بابليون القديمة على ساحل النيل ومدينة الفسطاط الإسلامية.

وقبل التطرق إلى الجوانب العمرانية فى المدينة لابد لنا هنا من وقفة لتحديد مشكلة قد تثير بعض الجدل، وهى " مسمى المدينة " وذلك حتى لا يحدث اللبس، ولارتباط ذلك بالعمران كما سنرى، ولنتفق معاً حول مفهوم واحد نطلقه على المدينة موضوع الدراسة.

فقد لاحظنا تضارب كبير بين أقوال الرحالة لتحديد مسمى مصر القديمة، وظهر ذلك بوضوح لدى الرحالة الفرنسيون الذين زاروا المدينة خلال القرن السابع عشر.

فالمصادر العربية دائماً تطلق عليها " مدينة مصر " فى حين أن أغلب الرحالة الأجانب يسمونها " القاهرة القديمة " وقد خرج من عباءة هذين اللفظين مسميات أخرى. فمثلاً يطلق عليها الرحالة " جوهان ويلد Wild " اسم مصر العتيقة[١]. وهى نفس المعنى الإيطالى الذى وضعه " برمون Premond" وهو "مصر البيطيش Misrul-betich "[٢]. ولكن نجد أغلبهم يركز حول لفظ " بابليون "[٣] التى توصف بأنها القاهرة القديمة الآن. والتى تقع جنوبى القاهرة على بعد ٥ كيلو متر، وقد شيدت على أنقاض مدينة الفسطاط الغابرة[٤]،

---

(١) Johann Wild: Voyage en Egypte "1610-1616" ch30 p167.

(٢) Gabriel. Premond وكذلك نفس المعنى الإيطالى انظر:
George Sandys: Voyages en Egypte "1611" p182

(٣) والتى يرى بلان أنها مدينة فرعونية – بيزنطية، أى هى بناء فرعونى-بيزنطى فى نفس الوقت. انظر:
Henry.Blunt: Voyege en Egypte "1634-1635" p127

(٤) Jacques Albert. Voyage "1634-1635" p138 =